المحاضرة الأولى في مقياس الأدب الجزائري

العنوان: الحركة الثقافية في الجزائر خلال القرن التاسع عشر

السنة الثالثة ليسانس (علوم اللسان /نقد)

الموسم الجامعي : 2020/ 2021

المحاور:

توطئة: محاولات المستعمر الجادة لاستغلال ثروات الجزائر والقضاء على معالم الهوية الوطنية

أولا: المقاومة الشعبية للمستعمر الفرنسي

ثانيا: اخر مرحلة للشعر القديم في الجزائر والأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري

ثالثا: ضعف الشعر الجزائري في الثلث الأخير من القرن التاسع

الأستاذة: جباري عائشة

توطئة: محاولات المستعمر الجادة لاستغلال ثروات الجزائر, والقضاء على معالم الهوية الوطنية.

بعد احتلال الجزائر في سنة 1830, اتجهت سياسة المستعمر لبذل كل جهد :" فتغيرت سبل الحياة الاجتماعية والاقتصادية, بعد أن كانت جل الأراضي ملك جماعي للجزائريين, فقد صدر قرار سنة 1832, يقضي بملكية الدولة الفرنسية لكل أرض, وهكذا أصبح بيد فرنسا أكبر مساحة من الاراضي, أما أهل البادية لم يبق لهم, إلا الأرض البور، وشرد الجزائريون من أراضيهم, وبقيت الحالة هكذا إلى قيام الثورة الجزائرية الكبرى.[1]

بالإضافة إلى ذلك عمل المستعمر الفرنسي على نهب ثروات الجزائر الباطنية كالنفط والمعادن لصالحه: " ولم يكتف المستعمر باحتلال الأراضي بل تعدى ذلك لاستغلال موارد الجزائر لحسابه فكان الوضع بقدر ماتزداد ثروة الفرنسيين, بقدر ما يزداد فقر الجزائريين, كما كان الدين الإسلامي ملكا خاصا في يد فرنسا فهي التي تعيّن أئمة المساجد والمؤذنين, أما الزوايا التي كانت فضاء يشع منه العلم, أصبحت مصدرا لغرس الجهل والتخلف في أذهان الجزائريين, فأصبحوا يعتقدون أن الشيخ هو من يكفر ذنوبهم ويدخلهم الجنة, والقادر على تخليصهم من كل ما يعانون منه, فهو من يورثهم البركة والصحة".[2]

لم تكتف فرنسا بذلك لتنويم الجزائريين, واستسلامهم لخططها ليبقى الوضع على ماعليه, بل سارت في وضع برامج دراسية, وفتح المدارس لتعليم اللغة الفرنسية كلغة رسمية في حين أن اللغة العربية تعامل معاملة اللغة الأجنبية " كما عمل المستعمر على فتح المدارس في وجوه الجزائريين, لكن التعلم كان فرنسيا بحتا, من أجل دمجهم تحت لواء فرنسا, أما اللغة العربية, فقد كانت اختيارية, تعامل معاملة اللغة الأجنبية"[3]

لكن بالرغم من ذلك لم يبق الجزائريون مكتوف الأيدي, بل ساروا إلى محاربة التضليل الذي تمارسه فرنسا للقضاء على اللغة العربية, التي تعد معلما رسميا يميز الدين الإسلامي عن بقية الأديان, " ففي هذه المرحلة يظهر الدور الكبير لجهد العلماء المسلمين في تشييد المدارس, التي وصلت إلى 170

---

[1] – محمد الطمار, تاريخ الأدب الجزائري, وزارة الثقافة, 2007, ص 259–263

[2] – محمد الطمار, المرجع السابق, ص 263

[3] المرجع نفسه, ص 263

مدرسة, ما أمكنها من تكوين نخبة من المثقفين, كما كانت مسؤولة على إيفاد بعثات علمية للدراسة في تونس و المشرق"[1]

أولا: المقاومة الشعبية للمستعمر الفرنسي

تجسدت فكرة المقاومة لدى الجزائريين, بمجرد أن وطأت أقدام العدو, الأرض الجزائرية, فعينوا من القادة من تميزوا بالشجاعة, والمقدرة الحربية لا نظير لها: " فبويع عبد القادر بن محي الدين,– هذا الشاب في العشرينيات– الإمارة, وقاد المقاومة الضاربة ضد العدو, وأذاقها الأمرّين في معارك عديدة, وفي مواقع متباينة من الغرب الجزائري فحقق انتصارات بالرغم من عدم تكافؤ الجيشين, كما كان له الفضل في تأسيس الدولة الجزائرية, قائمة على تنظيم الجيش, والقضاء والثقافة, والحياة الاقتصادية, لكن الجيش الفرنسي بلغ عددا باهظا, بحيث لم يعد للجزائريين احتمال مغالبته, كما لجأ الفرنسيون إلى وسيلة الإبادة.[2]

ثانيا: أخر مرحلة للشعر القديم في الجزائر(الأمير عبد القادر الجزائري)

هو عبد القادر بن محي الدين من عائلة شريفة دينية, ولد عام(1807) 1222هـ وهناك من يقول عام (1808) في قرية القيطنة بناحية معسكر مدينة معسكر, وأخذ الفقه على والده و علماء بلدته, ثم ارتحل إلى مدينة وهران فاستكمل فيها ثقافته ودرس الفقه والأصول والحديث والعلوم اللسانية, فبرع في علوم الشريعة، وكان الأمير يحب الشعر ويراه زينه وحلية, وله ديوان قام بجمعه ولده محمد ومن بعده الدكتور (ممدوح حقي) وقد قسم هذا الأخير إلى فخر وغزل ومساجلات ومناسبات وتصوف.

وله في الفخر, هذا النص, وهو يفخر بشجاعته, وقوته في ركوب الخطوب, كيف لا, وهو القائد الذي عرف المعارك و مارسها ممارسة الجندي و القائد, كما يتضح في فخره أثر عنتره و المتنبي, في عظمة الوصف, وقوة العبارة وشدة وقعها على الآذان والأذهان يقول فيه:

تـــساءلنـــــــــي أم البنين وإنها أعلم مـــــن تحت السمـــــاء بأحوالي

---

[1] محمد الطمار, المرجع السابق, ص 264

[2] محمد الطمار, المرجع نفسه, ص 261 أدافع عنهم, ما يخافون من ردى

ألـــــم تعلمي, ياربّة الخدر, أننـــي أجـــــــلي هموم القوم, في يوم تجوالي
وأغـــــشى مضيق الموت, لا متهيبا وأحـــــــمي نساء الحي في يوم تهوال
أمـــــــير, إذا ما كان جيشي مقبلا ومـــوقد نار الحرب, إذا لم يكن صالي
إذا مـــــــــا لقيت الخيل, إني لأول وإن جـــــال أصحابي, فإني لهم تال
أدافع عـــــنهم ما يخافون من ردى فـــيشكر كل الخلق من حسن أفعال

فالأمير, يصف ما رآه, وما عاناه من هول الحرب, ووصف الخبير الذي خاض غمارها, ومارس أهوالها, وشعره متين في لغته, كما أنه بعيد كل البعد عن التكلف والتنميق , يرد ارتجالا وأسلوبه المرسل المطبوع.

وله قصيدة يتحدث فيها عن فضل أهل البدو يقول فيها:

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر وعـــــــــــــاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيـــوتا خف محملـــــها وتمـــــــــدحن بيوت الطين والحجر
لـــو كنت تعلم, ما في البدو تعذرني ولـــكن جهلت, وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا بـــــــــساط رمل به الحصباء كالدّرر
أوجـــــلت في روضة, قد راق منظرها بـــــــــــكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيـــــــما طاب منتشـــقا يـــــــزيد في الروح لم يمرر على قدر

كما أن له شعر في الغزل, والشوق إلى الأحبة, والإخوانيات عندما زاره صديقه محمد الشاذلي القسنطيني, فرحب به بقصيدة يقول فيها:

أهلا وســـــــــــهلا بالحبيب القادم هـــــــذا النهار لدي خير مواســـم
جاء السرور مصـــــــــاحبا لقدومه وانـــــــزاح ما قد كان قبل ملازمي
أفديك بالنـــــــــفس النفيسة زائرا مـــــــن غير ما من ولست بنادم.
طالت مساءلتي الركاب تشـــــوقا لجـــــــــــمال رؤية وجهك المتعاظم

أما الرثاء فلم يكن في ديوانه قصائد من هذا الغرض ولعل تعوده ركوب الأهوال جعله يستهين الموت فلا يهابه,كما أنه لم يتعرض إلى وصف أسباب اللهو لأنه كان ذا نفس أبية, شريفة, تأبى أن

تتصدى لما يدنسها ويمنعها إلى ذروة المجد, أليس هو الشاعر الأمير, والأمير الفارس الشريف الهاشمي.[1]

فالأدب أخذ ينتعش من نكسته في عهد الأمير عبد القادر وما شعره, إلا صورة تعكس مستوى الثقافة في عصره," إلا أنه لم يكد دبيب العافية يدب في مفاصله حتى عاودته نكسته, فإن سياسة التجهيل التي سلكتها فرنسا في بلادنا اضطرت الأدباء إلى الانكماش والأدب إلى الركود مدة طويلة"[2]

ثالثا: ضعف الشعر الجزائري في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر

استمت الحركة الفكرية في منتصف القرن التاسع عشر تتميز بالركود بسبب السياسة التي انتهجها المستعمر الفرنسي, والمتمثلة في محاربة اللغة العربية, والوقوف في وجه العلم, لأن المستعمر يدرك أن بفضل العلم تستنير العقول, وتقوم الأمم والحضارات، فلم تشهد الساحة الأدبية في هذه الفترة, حراكا فكريا وأدبيا إلا في القليل النادر, وفي هذا الشأن, نورد رأي واحد من الأدباء الأوروبيين الذي) شاعر ومؤلف اسكتلندي توماس كامبل Thomas combleزار الجزائر" وهو توماس كامبل (يقول: سألت أستاذ اللغة العربية الذي عينته الحكومة الفرنسية في الجزائر, وكان اسمه(جون فرعون) أن يرشدني إلى أي نوع من الشعر العربي الحديث الذي كان قد كتب في الجزائر, أو عن الجزائر قال متعجبا, شعرا عربيا, حديث ولماذا؟ لم يعد هناك شاعر واحد على وجه الأرض(...) غير أن جوني تابع كلامه قائلا: دعني أنظر فقد يوجد بعض الاستثناء لهذه القاعدة في الأغاني الشعبية التي تدل على حدق وذكاء, وإن كانت فيها بذاءة بعض الأحيان(...) وأخيرا حصلت منه على ترجمة لبعض الأبيات التي لم أتأكد من أنه ترجمها بأمانة وفي الحقيقة لقد كان شعرا مضجرا كما قال.[3]

أما محمد ناصر فيصف هذه المرحلة, وتحديدا, الثلث الأخير من القرن التاسع عشر, بالضعف والانحطاط, لمستوى الشعر الجزائري"سنرى الحديث على الثلث الأخير, من القرن التاسع عشر, على أنه النتيجة التي انتهى إليها الشعر الجزائري, ذلك أن الضعف و الانحطاط اللذين وصل إليهما هذا الشعر في تلك الفترة, إنما كان نتيجة حتمية, لما كانت تعانيه الثقافة في الجزائر, من اضطهاد رهيب ناجم عن الاستعمار الفرنسي الذي كان يهدف إلى غزو فكري وثقافي(...) كانت نتيجته تعلق

1محمد الطمار, المرجع نفسه, ص274[1]

[2] المرجع نفسه ص،276

3أبو قاسم سعد الله, دراسات في الأدب الجزائري الحديث, منشورات دار الأدب بيروت, ط1, نوفمبر, 1966 ص 11[3]

الشباب الجزائري المثقف بالآداب الأجنبية, والأدب الفرنسي, على الخصوص(...) فترى الشباب يرددون أشعار(فيكتور هيغو) ومعجبون بروايات(شكسبير) ومن المحال أن يخطر ببال أحد ذكر علامة مسلم أو شاعر عربي, أو إصلاح مصلح مشرقي..[1]

لكن في المقابل, كانت الزوايا تدعو للتشبث باللغة العربية, والدفاع عنها: " أما التمسك باللغة العربية فقد ظل مقتصرا على بعض الزوايا والكتاتيب, فالذي أبقى اللغة العربية حية في ضمير الشعب هو الدين الإسلامي, فهو يرى أنها مرادفة للدين(...) غير أن هذه المراكز التعليمية بوسائلها المحدودة, لم تكن لتنهض بالأدب العربي في الجزائر, ولو أنها ساعدت على بقاء اللغة العربية, فنشأ الشعر في أحضانها, وشاع الشعر الديني الذي يعني بمدح الصالحين, والعلماء, والتغزل بالذات الإلهية, ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم... وقد يعثر الباحث على قصائد قليلة تعالج الغزل التقليدي,الفخر القائم على التباهي بالأجداد, والإخوانيات, التهنئة والتعزية في مصاب، وهذا النوع من الشعر أغراضه تافهة, لا يضطرب معها القلب, ولا يطير محلقا معها في سماء الخيال والشعور، كما نشطت المنظومات النحوية والفقهية بعيدة كل البعد عن مفهوم الشعر من ناحية المضمون أو الشكل, كما شاعت الأخطاء العروضية على مستوى الشكل, أما اللغة فكانت قريبة للفقه والعلوم الشرعية وقلت العناية بالأدب ونقده حيث يقول أحد الكتاب" فلو كان للشعر نقاد لما مجت مسامعنا قصائد بينها وبين سليم الشعر المطبوع, مراحل أحطت بمقام ذويها, ومن نماذجه, الحوار الذي أجراه كاتبه بين ملك وزيره: " قال الملك الذي يسمى شعره من بحر(طبل الحضرة)

حشائش الجنانات في زمن الربائع تشطح
وفرائح المطائر والخروفات تلعب يا ديني...[2]

ومن بين ضعف أسباب الشعر, يقول محمد ناصر: " نظرة رجال الدين, بأنه لهو الحديث, الذي نهى الله عنه, وأن الاشتغال به, اشتغال بمحرم, وأن العلم الصحيح هو علم الشريعة وحده.[3]

---

[1] محمد ناصر, الشعر الجزائري الحديث, اتجاهاته وخصائصه الفنية, دار الغرب الاسلامي, لبنان , ط1, 1985 ص 16.17

[2] محمد ناصر. المرجع السابق, ص 19- 22

[3] محمد ناصر, المرجع السابق, ص 23.

مع بداية القرن العشرين بدأت تلوح في الأفق بوادر نهضة أدبية مثلها شعراء رواد تأثروا بالنهضة المشرقية, والاصلاحية والوطنية بواسطة جريدتي(اللواء) و(المنار) المصريتين, وتمثلت هذه النهضة في بروز عدد من أعمالهم في صحف عربية رائدة مثل (المغرب 1903) وكوكب افريقيا (1907) والفاروق(1913) وذو الفقار 1913, تميز هذا النوع من الشعر بتطور بطيء في الشكل و المضمون,...فهو يعتبر علامة من علامات النهوض القومي, وكان الهدف منها هو إحياء اللغة العربية.[1]

---

[1] نفسه ، محمد ناصر ، ص 23